قبو جدتي

تأليف: مريم الصالحي

رسوم: نضال البزم

+6 سنوات

أنجزت هذه القصة بإشراف
الدكتورة: وفاء ثابت المزغني
في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة (ورشة الكتابة للطفل - تونس)

My Grandma Basement
Maryam Al Salihi
قبو جدتي
تأليف: مريم الصالحي

© 2019 Qindeel Printing, Publishing & Distrubtion
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدمًا.

- الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.
- موافقة «المجلس الوطني للإعلام» في دولة الإمارات العربية المتحدة:
رقم : MC-10-01-2662723 تاريخ: 17-10-2019
ISBN: 978-9948-36-887-8

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيد زايد
دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2019
الطبعة الأولى تشرين الأول / أكتوبر 2019م 1441هـ

نحو الإبداع والتميز

منذ انطلاقة «برنامج دبي الدولي للكتابة» في العام 2013 ونحن نراهن أن يكون رافدًا للشباب؛ يأخذ بأيديهم ويتبنى جهودهم وميولهم الإبداعية ليضعوا أقدامهم في بداية طريق الكتابة الاحترافية التي نأمل أن تصل بهم إلى مصاف كبار الكتَّاب والأدباء والمبدعين.

إنّه مشهد يعكس بكل جلاء حجم التطلعات التي تتبنَّاها «مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة» على مختلف الصُّعد ويترجم الجهود المبذولة والمبادرات الفريدة التي تسعى لإعادة الأمة إلى سابق عهدها، آخذة من المبادرات العالمية لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم مصدر إلهام لها، ومستمدة أفكارها ومشروعاتها الخلَّاقة من الرؤية الثاقبة لسمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس المؤسسة. ونحن إذ نعمل على توسيع رقعة البرنامج الدولي نساير تطلُّعات قيادتنا الرشيدة في نظراتها الاستشرافية لأجيال المستقبل من أبناء أمتنا العربية، الذين أوقدت فيهم مبادرة «تحدي القراءة العربي» جذوة الإبداع وأيقظت في أنفسهم مشاعر التحدي للَّحاق بركب الحضارة التي وضع أسلافنا مبادئها وخطَّت أقلامهم أبجديتها الأولى.

إنّ ثمار «برنامج دبي الدولي للكتابة» آتت أكلها من خلال أولئك الروَّاد الذين رافقهم في رحلة ممتعة مع أسس الكتابات الإبداعية وما حصول عدد من أعمال هؤلاء المبدعين على جوائز تقديرية على عدة مستويات إلا اعتراف بمدى فاعلية البرنامج وتحقيقه أهدافه التي وضعها، وصوابية نهجه الذي سلكه؛ تخطيطًا وتنفيذًا وإشرافًا. وإننا مع ذلك كله لا ننسى أن نثمن غاليًا جهود أولئك المتدربين الذي أثروا البرنامج برغبتهم المتَّقدة في التطور نحو الأفضل، كما لا يسعنا إلا أن نتوجه بكل الشكر للمدربين والمشرفين الذين أفاضوا من خبراتهم الإبداعية المكتسبة على مدى سنوات حياتهم، لتزويد المنتسبين للبرنامج بالأسس التي أخذت بأيديهم نحو قمم الإبداع الإنساني.

جمال بن حويرب
المدير التنفيذي لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

تُرى ما الَّذي تخبِّئُهُ جدَّتي في القَبوِ ولا تريدُني أنْ أراهُ؟ لمَ تنهرُني بعصبيَّةٍ ويمتَقِعُ وجهُها كلَّما سألتُها عنه؟

أسئلةٌ تراودُ «سمراء» وتثيرُ فضولَها كلّما زارَتِ الجدَّةَ «لطيفةَ» التي تمنَعُها باستمرارٍ مِنْ دخولِ قبوِ منزلِـها.

«سمراء» طفلةٌ ذكيَّةٌ ومَرِحَةٌ وابتسامَتُها لا تفارقُ وجهَها الملائكيَّ أبدًا، لكنَّها رغمَ ذلكَ كانَت مثيرةً للمشاكلِ، وكثيرًا ما تورِّطُ نفسَها في مغامراتٍ خطيرةٍ بسببِ فضولِـها الزَّائدِ.

- جدّتي لمَ تمنعينَني مِن دخولِ القبوِ؟

- إنَّه مظلمٌ جدًّا يا عزيزتي ومليءٌ بأشياءَ قديمةٍ يغطِّيها الغبارُ ولقدْ أَهمَلْنا صيانتَه منذُ زمنٍ بعيدٍ، كما أنَّ السُّلَّمَ مهترئٌ جدًا أخافُ أن تَسقُطي أو يتهاوى شيءٌ من السَّقف فيصيبَكِ مكروهٌ.

- إممم! قالَتْها «سمراءُ» وهيَ غيرُ مُقتَنعةٍ.

أنهتِ الجدَّة كلامَها بنظرةٍ يشوبُها التَّحذيرُ مُربِّتةً على رأسِ الصَّغيرةِ.

اِستدركَتْ «سمراءُ» بسرعةٍ قائلةً:

- لكنْ يا جدَّتي، أنا لن ألهوَ بداخلِهِ ولن أعبثَ بشيءٍ، أنا فقط أريدُ أن أطَّلعَ على ما بداخلِهِ.

- لا داعيَ للإصرارِ، أنا لن أسمحَ لكِ بالدُّخولِ، ستُدركينَ معنى خوفي حينَ تكبُرينَ.

ليلةَ العيدِ، وكما جرتِ العادةُ، اِجتمعَتِ العائلةُ في بيتِ الجدَّةِ وكانَ الجوُّ مليئًا بالفرحِ والسَّمرِ، وكانَتْ أصواتُ الضِّحكاتِ المبتهجةِ تتَعالى في مجلسِ الحديقةِ.

دخلتِ الجدَّةُ إلى القبوِ لتجلبَ بعضَ الفحمِ؛ فليالي العيدِ لا يَكتمِلُ رونَقُها بدونِ رائحةِ البُخورِ لكنْ يبدو أنَّ فرحةَ العيدِ أَنسَتْها إحكامَ غَلْقِ بابِ القَبوِ عقِبَ خروجِها.

بعدَ تناولِ العشاءِ، أخذَ الأطفالُ يلعبونَ ويطوفونَ حولَ المنزلِ، وفي الأثناءِ لاحظَتْ «سمراءُ» أنَّ بابَ القبوِ ليسَ مغلقًا تمامًا كعادتِهِ، فتحرَّكَ الفضولُ بداخلِها.

تأكَّدتِ البُنيَّةُ منِ انشغالِ جدَّتِها في المطبخِ لإعداد الشَّاي، ثم توجَّهَتْ نحو القَبوِ ودفعَتِ البابَ برِفقٍ حتَّى لا يعلوَ صوتُ صَريرِهِ فيتفطَّنَ إليها أحدُ الأطفالِ. كانَتْ يدُها ترتَعِشُ وقلبُها يخفِقُ بقوَّةٍ.

مدَّت ساقَها بحذرٍ لتَنزلَ الدرَّجَ وكلامُ جدَّتِـها يتردَّدُ على مسامِعِها وهيَ تُحَذِّرُها، فتَوخَّتِ الانتباهَ في كلِّ خُطوةٍ تَخطوها، ونزلَتِ الدَّرجَ رويدًا رويدًا، لكنها لم تفكِّر قطُّ في الرُّجوعِ عن قرارِها.

يا لها مِنْ مغامِرةٍ!

لم يكنِ القبوُ مظلمًا جدًا كما قالتِ الجدَّة، فقد كانت هناك نافذةٌ صغيرةٌ يتسلَّل منها نورٌ يضيءُ المكانَ قليلًا.

كانَ كلُّ شيءٍ حولَـها يغطِّيهِ الغُبارُ وخيوطُ العَنكبوتِ. عندَ الزَّاويةِ توجدُ بضعُ أوانٍ قديمةٍ وقِطَعٌ خشبيَّةٌ وطاولةٌ صغيرةٌ فوقَها شمعدانٌ.

بدأَتْ سمراءُ تتوغَّل داخلَ القَبوِ بتوجُّسٍ كبيرٍ، تتقدَّمُ خطوةً فخطوةً خيفةَ أن تصطدِمَ بشيءٍ. وكانت كلّما تقدَّمت إلى الدَّاخلِ أصبحَتْ حَدَقَةُ عينِها أكثرَ اتِّساعًا، حتَّى تراءَتْ لها رفوفٌ عُلْويةٌ عليها كتبٌ ضخمةٌ.

- آه! ما هذِهِ الكتبُ الكبيرة! لِمَ لمْ تخبرْني جدَّتي أنَّ لديها مكتبةً في القَبْوِ؟ غريبٌ!

سطَعَ لامعُ الفُضولِ في عينيها، نظرَتْ حولَـها علَّها تجدُ شيئاً تعتليهِ لتصلَ إلى الكتبِ، فلم تجدْ سوى تلكَ الطَّاولةِ المهترئةِ وبجانبِها عصًا مرميةٌ على الأرضِ، لكنَّ صوتَ جدَّتِـها لم يفارقْها أبدًا.

- ليس في القبوِ سوى أشياءَ قديمةٍ لم تعدْ تصلحُ للاستعمالِ، وقد نخرَها السُّوسُ منذُ زمنٍ، أرجوكِ لا تَقتَربي منها يا «سمراءُ».

لم يبقَ لدى «سمراءَ» سوى حلٍّ واحدٍ، وهوَأن تحاولَ إسقاطَ الكتبِ باستعمالِ العصا.

شرعَتِ الصَّغيرةُ تحاولُ جاهدةً، تقفُ على أطرافِ أصابِعها وتمدُّ يدَها، تُمطِّطُ جسـمَها قدرَ ما أمكنَها لتصلَ حتَّى نالَ منها التَّعبُ، وحينَ أوشكَتْ أن تيأسَ حدَثَ أمرٌ عجيبٌ!

سقطَ كتابٌ على رأسِ «سمراءَ»، فشعرَتْ ببعضِ الدُّوارِ، وبالكادِ فتحَتْ عينيها وتماسكَت، ثم نظرَت حولَـها.

- يا إلهي! ماذا جرى؟ أينَ أنا؟

وجدَت «سمراءُ» نفسَها فجأةً في عالم لطالما تمنَّتْهُ، عالمٍ كلُّه جمالٌ وألوانٌ وزهورٌ وحلوى.

الشَّمسُ تمشطُ أشعَّتَها الذَّهبيةَ ضاحكةً مستبشرةً، يحومُ حولَـها سحابٌ ورديٌّ مِن حلوى غزْلِ البناتِ

هنا بئرٌ من العسل وهناك بئرٌ من الحليب، ونهر جارٍ من عصيرِ الفراولة والموز ينتظرُ على ضفافِه

منطادٌ يسافرُ إلى القمرِ.

جابَتْ سمراءُ حقولَ الخُزامى تطاردُ الفراشاتِ الملوَّنةَ، ثم انشغلَتْ باكتشافِ الأشجارِ المحيطةِ بالحقلِ.

- لكم تمنيتُ هذا! يا لَروعةِ هذا المكانِ، أشجارِالشكولاتةِ والحلوى والكعكِ الشَّهيِّ.

ثمَّ بدأَتْ تقطِفُ حبَّات الشكولاتةِ وتتذوَّقُها بِنَهَمٍ.

- امممم.

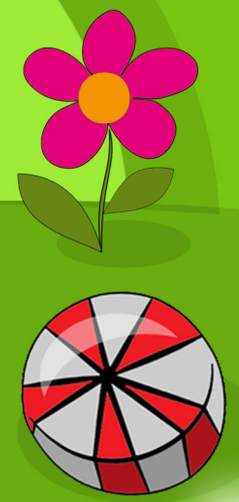

حانَ وقتُ تقديمِ حلوى العيدِ الشَّهيَّةِ التي تصنعُها الجدَّةُ «لطيفةُ» ويحبُّها الكبيرُ والصَّغيرُ، ولا سيَّما «سمراءُ».

قُدِّمتِ الحلوى وتهافَتَ الجميعُ على الطَّاولة ما عدا هي.

تفطَّنت الجدَّة إلى غيابِ بُنيَّتِها الصَّغيرةِ، نادَتْ علَيها لكنَّها لم تُجبْ سألَتْ عنها الأطفالَ في الحديقةِ لكنَّ الإجابةَ كانَتْ نفسَها وبصوتٍ واحد:

- لا نعلمُ يا جدَّتي.

- قد رأيتُها دخلَتْ إلى المنزلِ، ربَّما هيَ في الحمَّامِ.

قال العمُّ وليدٌ مخاطبًا الجدَّةَ، ثم عادَ وانْسجَمَ مع البقيَّةِ في الاحتفالِ.

- ألم تجديها؟ قد طلبَتْ منِّي أن آخذَها لترى المهرةَ، لكنِّي رفضْتُ وأجَّلتُ ذلكَ إلى الغدِ صباحًا، ربَّما ذهبَتِ المشاغبةُ هناكَ سأذهبُ للبحثِ عنها في الإسطبلِ. قالت أم «سمراء» مخاطبةً الجدة، ثم هُرِعَتْ إلى الإسطبلِ تبحثُ عنها.

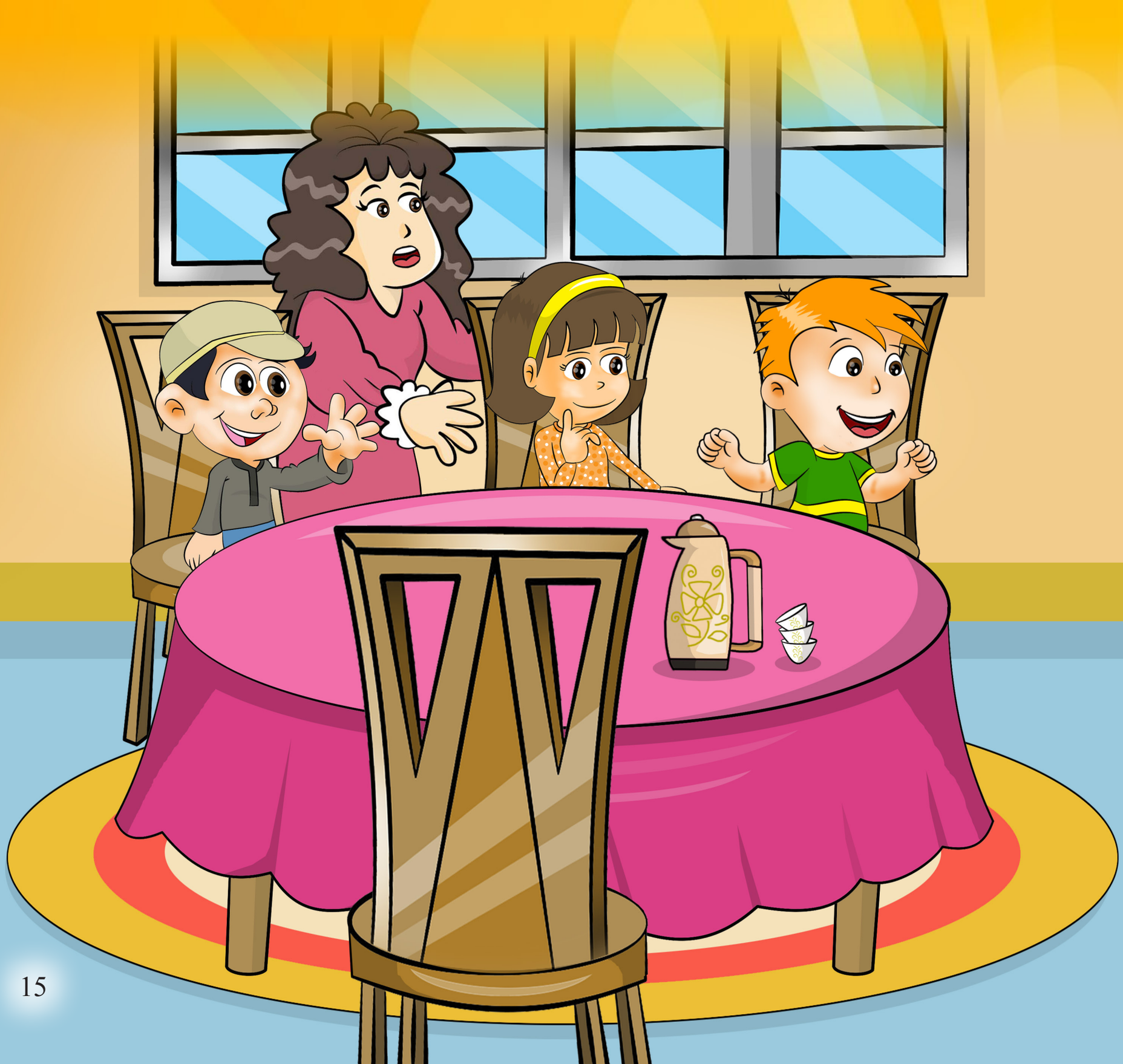

استمرَّت الجدةُ في البحث عن «سمراءَ»؛ فقدْ كانَت تساورُها الشُّكُوكُ حولَ غيابِـها، وهيَ التي اعتادَت دائمًا قيامَها بأمورٍ متهوِّرةٍ. عادَتِ الجدَّة إلى الدَّاخلِ تبحثُ عنها، وجابَتِ البيتَ جِيئةً وذهابًا تفقَّدَتِ الغُرفَ والحمَّام والمطبخَ لكنْ لا أثرَ للصَّغيرةِ.

وأخيرًا لم يبقَ سوى الفِناءِ الخلفيِّ، توجَّهتْ إليهِ الجدّة، وهناكَ اكتشفَتْ أن بابَ القبوِ مفتوحٌ.

ارتعدَ قلبُها وهرولَتْ مسرعةً حتَّى كادَت أن تزلَّ قدمُها وتسقطَ عندَ نزولِـها الدَّرجَ المهترئَ.

- يا إلهي! «سمراءُ»، «سمراء»!.

لا أحدَ يجيبُ سوى صدى صوتِـها وعطرُ الصغيرةِ الَّذي كانَ يعمُّ المكانَ.

- آهٍ! قد فعلَتْها تلكَ الشَّقيةُ، قد عبثَتْ بالكتبِ العجيبةِ؛ ما كان عليَّ أن أنسى بابَ القبوِ مفتوحًا.

كادَ قلبُ الجدَّةِ أن يتوقَّفَ من شدَّةِ الخوفِ على حفيدتِـها.

حاولَتِ الجدَّةُ «لطيفةُ» تذكُّر التَّعويذةِ التي ستُعيد لها «سمراءَ»، وهي تعويذةٌ علّمها إيَّاها والدُها حينَ سلّمها الكتبَ أمانةً عندَها لتنقذَ بها مَن يقعُ فريسةَ هذهِ الكتبِ وتعيدَهُ إلى العالمِ الحقيقيِّ.

- ديملاجا، ديملاجا.. ألقَتِ الجدَّة تعويذتَـها، لكنَّ «سمراءَ» لم تَعُد!

اِرتبَكَتِ الجدَّةُ واصفرَّ لونُها مِن شدَّةِ الهلَعِ، وحاولَتِ أن تتذكَّر كلامَ والدِها.

- آهٍ! قد نسيتُ أنْ أُصفِّقَ ثلاثَ مرَّاتٍ بعدَ إلقاءِ التَّعويذةِ.

أخذَتِ الجدَّةُ «لطيفةُ» نفَسًا عميقًا، ثم قالَت:

- ديملاجا، ديملاجا! وصفَّقت ثلاثَ مرَّاتٍ.

مِن وسَطِ الظَّلامِ أشعَّ نورٌ، ها قد عادت «سمراءُ».

تنفَّسَتِ الجدَّة الصُّعَداءَ وقالَتْ بصوتٍ مرتجفٍ:

- آهٍ يا صغيرتي! الحمدُ للهِ أنَّكِ بخيرٍ.

- لا تقلَقي يا جدَّتي أنا بخيرٍ. قالتِ الصُّغيرة معانقةً جدَّتَها.

ضمَّتْها الجدَّةُ إلى صدرِها بقوَّةٍ وسكتَتْ هُنَيهَةً، ثمَّ أردفَتْ قائلةً:

- أظنُّكِ فهمْتِ سببَ خوفي عليكِ، وقدْ عرفْتِ الآنَ لمَ كنتُ أمنعُكِ مِنَ الدُّخولِ للقبوِ، آهٍ منكِ يا مشاكسةُ!

أأأ.. أوشكْتُ أن أموتَ مِنَ الخوفِ عليكِ يا صغيرتي، إنَّ العالمَ داخلَ هذهِ الكتبِ العجيبةِ مخيفٌ جدًا يا عزيزتي.

استغربَتْ «سمراءُ» وعيناها تتلألآنِ سرورًا، مِنْ كلامِ جدَّتها وقالت:

- لمَ خفتِ يا جدَّتي؟ لا يوجدُ هناكَ ما يخيفُ أبدًا أبدًا.

- إنّ العالمَ في الدَّاخلِ مرعبٌ تسكنُهُ الوحوشُ التي نسمعْ عنها في الحكاياتِ والرواياتِ.

- ولكنْ يا جدَّتي عن أيِّ وحوشٍ تتحدثينَ؟

- قد دفعني فضولي عندَما كنتُ طفلةً مثلَكِ إلى العبثِ بها، وقد حملتني إلى عالمٍ مليءٍ بالوحوشِ والظَّلامِ والأخطارِ.

- أحَقًّا يا جدَّتي؟ قالت «سمراء» في ذهول كبير!

- نعم يا بُنيَّتي، لكن حمدًا للهِ أنَّ والدي -رحمه الله- تفطَّن إلى غيابي بسرعةٍ واكتشفَ أمري مع الكتبِ فألقى تعويذتَهُ هذهِ التي ألقيتُها الآن. شعرْتُ حينَها كأنَّ ريحًا قويةً حملَتْني وأعادَتْني بلمحِ البصرِ إلى عالمِنا هذا.واللهِ لو بقيتُ هناكَ أكثرَ لكنتُ قد مِتُّ منَ الخوفِ! ومنذُ تلكَ التَّجربةِ لم أكرَرْ فعلتي قطُّ، آهٍ يا «سمراءُ» لقد ذكَّرتِني بالَّذي مضى.

أنصتَتْ «سمراءُ» إلى حديثِ جدَّتِها وهيَ فاتحةٌ ثَغرَها وقد اتَّسعَت عيناها مِنْ شدَّةِ الاستغرابِ، ثم قالَتْ لها:

- على العكسِ يا جدَّتي، فما رأيتُ أخطارًا ولا وحوشًا ولا ظلامًا، بل شعرتُ كأنِّي أتجوَّلُ بداخلِ إحدى لوحاتي، هل تذكرينَ تلكَ الشَّمسَ التي رسمتُها تَمشُطُ شعرَها وسخِرتُم منّي آنذاكَ؟ قد وجدتُها هناكَ. وحينَ سألتُكِ هل بإمكانِنا أن نزرعَ أشجارًا ثمارُها الشكولاتةُ والحلوى في حديقة منزلك ضحكتِ كثيرًا وقتَها، لقد عثرْتُ هناكَ على أشجارٍ متنوعةٍ وثمارُها عجيبةٌ. كانَ كلُّ شيءٍ هناكَ رائعًا وعجيبًا. كلُّ الّذي خطرَ يومًا على بالي ورسمتُه وتمنَّيتُهُ وجدتُهُ في ذلكَ العالمِ الرَّائعِ يا جدَّتي الحبيبةَ.

- أصحيحٌ ما تقولينَ يا سمراءُ؟! قالتِ الجدَّةُ وقدِ ارتسمَتْ على وجهِها الدَّهشةُ.

- إنّ هذهِ الكتبَ يا جدَّتي أهدَتْني كلَّ ما أفكِّرُ فيهِ وأتوقُ إليهِ، قدْ جعلَتْ كلَّ ما تخيَّلته يرتَسِمُ حولي، ووهبَتني العالمَ الّذي أحبُّهُ، كم هوَ جميلٌ ورائعٌ أن نعيشَ في عالمٍ يشبهُ أحلامَنا!

ربَّتتِ الجدَّة «لطيفةُ» على كتِفِ «سمراءَ» ضاحكةً وقالت:

- بالطبع يا غاليَتي، إنَّهُ لأمرٌ رائعٌ أن نكونَ محاطين بالأشياءِ التي نحبُّها والأشخاصِ الَّذينَ نحبُّهم لذلكَ أنا أريدكِ بالقربِ منِّي دائمًا.

- إذا هلَّا علَّمتِني تلكَ التعويذةَ حتَّى إذا دخلْتُ مرَّة ثانيةً يكونُ بإمكاني العودةُ!

- لا.. لا، مستحيلٌ. (قالتِ الجدَّةُ بلَهْجَةٍ صارمةٍ)، أنا لا أثِقُ بهذِهِ الكتبِ؛ فقدْ أرتْني كلَّ شيءٍ أخافُهُ إنَّها كتبٌ قويةٌ لا يمكنُ لأحدٍ تدميرَها، ولا يمكنُني أبدًا أن أثقَ بها، لذلكَ أنا أخبِّئُها بعيدًا عنِ الأيادي هنا وعليكِ أن تنسي أمرَ هذهِ الكتبِ ولا تقتَربي منها ثانيةً ولا تخبري إخوتَك وأبناءَ عمِّك عنها.

- لكنَّها أرتْني كلَّ الأشياءِ الجميلةِ التي تخيَّلتها، أعدكِ أن لا أفكِّرَ أبدًا في أمورٍ تخيفُني، سأفكِّرُ فقط في الأشياءِ الجميلةِ والرائعةِ، هيَّا أخبريني أرجوكِ.

أخذَتِ الجدَّة يدَ حفيدتِها برِفقٍ واتَّجهَتْ معها نحو الدَّرج قائلةً: عالمُنا جميلٌ أيضًا، اِبحثي عن أشيائِك المحبَّبةِ في عالَمِكِ وستجدينها يا جميلَتي، لكنْ بعيدًا عن هذهِ الكتبِ العجيبةِ يا «سمراءُ»، اِبحثي عنها في كتبٍ أخرى، يوجدُ في العالمِ العديدُ منَ الكتبِ المثيرةِ والشيِّقةِ التي ستروقُ لكِ بالتأكيدِ، اتَّفقنا؟

ـ اممم.. إذا كانَت هديةُ العيد وكلُّ الهدايا في المناسباتِ القادمةِ مجموعةً من الكتبِ الجميلةِ، فلا يسعني سوى أن أقولَ: نعم اتَّفقْنا.